

تقرير

«الديموقراطي الشعبي»: إسناد خلفي للمقاومة الإسلامية

لأن الحزب الديموقراطي الشعبي لم يلق السلاح، وتعفف عن التنازلات السياسية والطائفية، ولا يزال «مصاباً» - رغم لبنانيته - بالماركسية اللينينية والكفاح المسلح وحقوق الطبقة العاملة، ولأن جاهليه الكثر يشملونه بالحزب الشيوعي، كان محطة يجب التوقف عندها في العيد الثامن والثمانين لتأسيس «شيوعية» لبنان

اللبنانية بتفاصيلها المصيرية والعبارة تضيق الخناق على عناصره في ظل السعار المذهبي والتدفق المالي. يدرك الشعبي قدراته، ويعرف أن مكانه ليس في الصف الأول، بل في الكواليس. لم يرشح أحداً من أعضائه لمقعد أو منصب ما. عمل بصمت بدءاً من جبهة المقاومة إلى معارك النقابات العمالية والاتحاد العمالي العام ومواجهة التدخل السوري ودعم المرشحين العروبيين والمقاومين ضد قوى السلطة، باستثناء حزب الله الذي تشفع له مقاومته. في صيدا التي يشكل فيها ثقلًا واضحاً، بحمل «الشعبي» نفسه والقوى الوطنية، مسؤولية تمدد ظاهرة الأسير وقبلها المد الحريري. لكن أسفه الأكبر على تناسي كيف رفضت جرافات مؤسسات الحريري المساعدة في رفع أنقاض المباني التي قصفت خلال الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، لإنقاذ العالقين تحتها ومنهم أحد مؤسسي الحزب الشهيد رشيد بروم الذي قضى مع عائلته متأثرين بجراحهم. لكن ليس شعور الانتقام الشخصي ما يجعل من ال الحريري وارتباطاتهم العدو اللدود للحزب الشعبي. بل إنها «الراسمالية والاستثنائية»، اللذان هزمهما الحزب في انتخابات بلدية صيدا عام 2004 وفي الانتخابات النيابية التي فاز بها «الحليف» أسامة سعد، عندما حوّل الحزب نفسه فيها إلى ماكينه انتخابية.

الحزب الذي خرج من رحم حزب العمل الاشتراكي العربي الذي أسسه جورج حبش عام 1969، طالعاً من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ينام مرتاح الضمير راضياً بحجمه المتواضع ومبتسماً لاتهامه بـ«الخشبية والراديكالية وعدم التنازل والمساومة والمخالفة في زمن الأوغاد». كيف لا، حمزة نفسه كان يمكن أن يكون اليوم زعيماً سياسياً في البرازيل التي هاجر إليها بدافع العمل في الخمسينيات وشارك في حركات التحرر في أميركا اللاتينية بقيادة تشي غيفارا. لكنه فضل بأن يترك التحرر الخارجي ويؤسس لتحرر بلده الذي انتهى به إلى الاعتقال على يد عناصر المكتب الثاني بتهمة التحضير لانقلاب على الدولة. «الشعبي» يقتنع اليوم بضعف موارد المالية التي يؤمنها من اشتراكات الأعضاء. ولانحياز نشاط ما، «نلّم ما تيسر من بعضنا البعض». مع ذلك، يملك الحزب مؤسسات عدة كان قد افتتحها في زمن العز ولا يزال نشاطها مستمراً. مستوصف الشهيد رشيد بروم وجمعية الأدب والثقافة في صيدا ومنتدى إنسان في الشوفيات والتجمع الوطني الديموقراطي في عكار. حتى الآن، يتابع الشعبي مسيرته النضالية. فالشيوعية «لم تسقط بانهايار الاتحاد السوفياتي الذي ضربه التطبيق الخاطئ للاشتراكية البعيد عن أسس الفكر الماركسي اللينيني». فيما «الكفاح المسلح بثبت صوابيته يوماً بعد يوم حتى تحرير كامل الأرض». في رحابه، أبقت سميير القنطار معنى فلسطين وحياته التي أنقذها عناصر الحزب خلال إحدى المواجهات التي شاركهم فيها في جبل الكنيسة. مع ذلك، يعتبر بأنه أعطى أكثر مما حصته وقاعدته وموارده، لم يفوه حقه، حتى حزب الله.

يأخذ بعض الرفاق، الشيوعيين على الحزب تحوله إلى إسناد خلفي لحزب الله

داخلياً، يدرك الحزب أن مواجهة إسرائيل أسهل من مواجهة قوى الطائفية والراسمالية. من على شرفة منزله في رأس بيروت، يستعيد حمزة أحداث السابع من أيار التي لا يخجل حزبه بالمشاركة فيها، بعد أن سقط له الكثير في مواجهات التصدي لعملاء إسرائيل والقوى الفاشية. من هنا، لا يفصل حمزة المواجهة الأخيرة عن مقاومة الإمبريالية والصهيونية. لكنه يقر بأن «الصراع عميق، قد ينهزم فيه العلمانيون أكثر من مرة». اليوميات

الحزبين المباشرة بدأت بعيد عدوان عناقيد الغضب في عام 1996، عندما «أدركنا أن المقاومة المسلحة حالياً هي بيد حزب الله فقط». وانطلاقاً من المبادئ الماركسية، «اخترنا التلاقي مع تلك المقاومة الكفوءة والإيجابية مع الناس بدلاً من عزلها وضربها»، يقول حمزة. المعادلة التي طرحها «الشعبي»، انعكست بعد سنوات في خطاب السيد حسن نصرالله عندما أعلن استعداد «للتعاون مع الماركسي اللينيني والقومي والإسلامي الشرفاء».

أماه خليك

تحلقت في مقر الحزب الديموقراطي الشعبي في صيدا مجموعة من الأشخاص. تحت لوحة خلدت محطات من عمليات المقاومة في رامية وعينات والقنطرة، جلس على التوالي، ذوو الشعر الأبيض وذلك المغطس بـ«الجل»، العمال والصناعيون والأساتذة والمثقفون، السيدات العاملات والمراهقات اللاتي لا يتخلين عن «الواتس أب». وبينهم، أطفال من عمر الشهر حتى عشر سنين. هؤلاء هم عائلة الحزب الديموقراطي الشعبي. يبدو عادياً «صمود» الكثير من الرفاق الأوائل على شجرة العائلة، ممن أصيبوا واعتقلوا وتظاهروا تحت جناحه. لكن انضمام طلاب وطالبات مدارس وجامعات حديثاً إلى الحزب العلماني، يشكل ظاهرة لافتة في صيدا. فمهمة قطاع الشباب فيه صعبة في استقطاب طلاب المدارس والجامعات والعمال إلى أفق علماني يقدس سلاح المقاومة، في ظل «موضة» الأسير والحريري التي تتوجه إلى هذه الفئة العمرية بالذات.

مناسبة اللقاء، تقرب الرفاق والرفيقات الجدد من ماضي الحزب وأمجاده في جبهة المقاومة الوطنية، بهدف تثبيت البوصلة لديهم التي قد يهزها العصف المذهبي والطائفي المستعر حولهم. استذكروا شهيد الحزب الأول راجح غرز الدين الذي سقط عام 1969 في عملية فدائية مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في غور الأردن. إلا أن «الشهيد الحي» رمزي، حضر ليخبرهم كيف أطلق الصواريخ على مسبح «لبنان بيتش» في خلدته أثناء انعقاد طاولة المفاوضات بين لبنان وإسرائيل لتوقيع اتفاق 17 أيار «الذي لا يزال يحوم حولنا». أما رشيد فقد حضر من دون إحدى قدميه وعينه اللتين فقدهما بانفجار لغم في كفرقالبوس أثناء مشاركته في عملية لجبهة المقاومة الوطنية.

لكن ماذا عن المقاومة اليوم؟ يؤكد الأمين العام للحزب الديموقراطي الشعبي نزيه حمزة لهم أن الحزب رفض قرار حل المقاومة وتسليم السلاح. وظل حتى عام 1994، ينفذ عمليات في الجنوب. إلا أن عدم وجود نقاط متقدمة لهم في الخطوط الأمامية كما كان للحزب الشيوعي، أعاق عملياتهم. مع ذلك، أكد حمزة أن قرار القتال ليس مرتين بإمرة حزب الله، مفصلاً عن دور الجندي المجهول في عدوان تموز من جهة وجهوزية كاداره العسكري لمواجهة العدوان الإسرائيلي. من هنا، يأخذ بعض الرفاق الشيوعيين على الحزب تحوله إلى إسناد خلفي لحزب الله «الذي صادر دورهم واحتكر المقاومة المسلحة ضد إسرائيل». ينتقدون ما يقولون إنه ذوبان «الديموقراطي الشعبي» في خيارات الحزب القائد لقوى الثامن من آذار: ليس أولها المشاركة في تظاهرة الثامن من آذار وليس آخرها المشاركة في أحداث السابع من أيار في مناطق وجوده في بيروت والجبل وصيدا. لكن للحزب الماركسي اللينيني قناعة بدعم الحزب الإسلامي، يستمدّها من قناعته بضرورة استمرار الكفاح المسلح ضد الصهيونية والإمبريالية أينما كان ومع أي جهة. يوضح حمزة بأن علاقة



الكفاح المسلح يثبت صوابيته يوماً بعد يوم حتى تحرير كامل الأرض (أرسيف)

إلى الرضيعة السيد حسن

أيضاً، شغف متابعة فقرة التحية إلى شهداء المقاومة الإسلامية على قنات المنار، وحفظ تفاصيل العملية الاستشهادية لبطل جبهة المقاومة اللبنانية جمال ساطي وسيرة حياة غيفارا، ومناصرة كل حركات التحرر في العالم والمناضلين من أجل فلسطين ورفع شارة «لا تنسوا أسرارنا في السجون الإسرائيلية» وشعار «المقاومة الوطنية اللبنانية وجدت لتبقى». لكن كل ذلك لم يثن جاد عن إصراره على الأخذ بثأر قدم والده التي بترت أثناء إحدى مشاركاته في عمليات الجبهة قبل أن يولد بسبعة عشر عاماً. يتمسك بالمقاومة الإسلامية، معبراً عن «قناعته» بأن «الشيوعيين يحبون أي حدا يحارب إسرائيل وأميركا». لم تكن رسالة «الرفيق» جاد وحدها من حرك السيد ليجيب بسرعة ويوصي مساعديه بـ«بروزتها» وتسليمها له باليد وتصوير تلك اللحظة بالفيديو ليشاهدها لاحقاً. بل إن تجربة حزبه مع الحزب الديموقراطي الشعبي كانت الدافع الأقوى. كلمات جاد، نسخة مبسطة لخطاب «الشعبي» الراشد.

لمقر الحزب الديموقراطي الشعبي في صيدا. الأمانة كانت برؤاها حفظت داخله رسالة جاد التي أكملها السيد بخمسة أسطر جوابية بخط يده ممهورة بإمضائه، وجهها لـ«العزیز جاد»، شاكرأ له «محبتك للمقاومة ولحزب الله وفلسطين وعلى تبرك بنقودك وأسأل الله أن يوفقك لتكون مقاوماً للاحتلال وناصراً للحق».

الطفل الشيوعي ذو السنوات الثماني، تحول إلى بطل حكاية يرددها عدد من المشايخ والكوادر في حزب الله للأطفال والفتيان في المخيمات وجلسات التعبئة الخاصة بهم. لكن ليس هذا كل ما أنجزه جاد. انتسب تلقائياً إلى الحزب الديموقراطي الشعبي، حتى قبل أن ينطق. ورثه عن والديه وأعمامه وأولادهم، مثلما ورث المشاركة في الاعتصامات والمسيرات المطلوبة للعدالة الاجتماعية وانتصاراً للقراء وضد السياسة الأميركية في عوكر وانتصاراً للثورات العربية وتضامناً مع المعتقلين الكوبيين الخمسة في الولايات المتحدة وإحياء لذكرى استشهاد غيفارا. كما انتقل إليه بالوراثة

في عيد تحرير الجنوب، العام الماضي، جمع جاد حشيشو، ابن الثماني سنوات، مالا «صمده» من مصروفه الشخصي، في قجة بلاستيكية، دس فيها رسالة خطها على ورقة من دفتر المدرسة، وجهها للسيد حسن نصرالله. بدأها بالتعريف عن نفسه بأنه «من الحزب الديموقراطي الشعبي، من صيدا، لبناني. أريد أن أعطي النقود للمقاومة لتشتروا السلاح لنحارب إسرائيل الكلبة. وعندما أكبر سأكون مقاوماً شيوعياً وسأحارب أميركا وإسرائيل حدّ حزب الله وسأفهمهم قطعة قطعة حتى أطردهم من لبنان والجزلان وفلسطين التي أحبها كثيراً». واختتمها بالتعبير عن فرحه فيما لو بدله السيد برسالة. حمل الطفل قجته إلى مليتا التي كانت المحطة الختامية للمسير الذي شارك فيه ونظمه حزبه، من الوادي صعوداً حتى المعلم الجهادي. هناك، بادر جاد إلى تسليم القجة بالرسمية، لمسؤول المعلم. بعد أيام، اتصل الأخير بوالد جاد يبلغه بوجود أمانة لطفه سيوصلها وفد من حزب الله خلال زيارة خاصة